

سلسلة مدخل إلى الكتاب المقدس

سفر النبي حزقيال



المطران سابا (إسبر)

٢٠١٩

*صورة الغلاف رسم طلال إسبر.

مقدمة موجزة: رسالة الأنبياء

يختار الله إنساناً ويدعوه كي يحمل كلمته إلى الشعب، فيُدعى نبياً. يبلغ النبي كلمة الله في إطار الواقع الذي يعيش فيه والشعب، وهذا ما يُسمى في اللاهوت «هنا والآن». غالباً ما رفض السامعون كلمة الله هذه، وحالنا ليست أفضل منهم دوماً، لكنهم يتيقنون من صحتها بعد زمنٍ، حينما تتحقّق الأمور التي تكلم النبي عنها. وقد أورد الأنبياء أموراً كثيرة تحققت في المسيح، هذه ندعوها «نبوءات مسيحانية».

يدعو الله كلّ نبيّ بطريقة مختلفة، لكنّه يحمله كلمته إياها. يذيع النبيّ كلمة الله التي غالباً ما تخالف مشيئة البشر ومسلكتهم، لأنّ دعوة النبيّ الرئيسة هي إلى التوبة والالتجاء إلى الله مصداً وحيداً للنّجاة والخلّاص.

يخاطب الله شعبه بواسطة النبيّ من خلال الأحداث الزاهنة للواقع. لذلك نجد الأنبياء يتدخّلون في سياسة الملك والمملكة ويقولون عكسها في أغلب المرات. إذا ما دعا نبيّ إلى عدم الانجرار وراء طلب الحماية من مصر لمقاومة بابل، أو طلب نبيّ آخر عدم مقاومة آشور لأنّها أداة الله لتأديب الشعب، واعتبر نبيّ ثالث "قورش" ملك فارس مسيح الله، فلا يعني هذا أنّ النبيّ محلّ سياسيّ أو رجل سياسة، بل رجل الله الذي يقرأ ما يحدث قراءة دينيّة على ضوء الخلاص المطلوب. همّه أن يتحقّق تدبير الله لخلّاص شعبه، وتالياً إتمام العهد المعقود بينهما منذ زمن موسى النبيّ.

يكشف الله عن ذاته من خلال التّاريخ وأحداثه. فأمام شعبٍ بدويّ وغير متحصّر ولا يملك فكراً أو ثقافة، اختار الله أن يعرّفه بنفسه، شيئاً فشيئاً، بشكل حسّيّ ومنظور. عرف الشعب أنّ ربّه سيّد التّاريخ. من هنا كانت رسالة الأنبياء قول كلمة الله الآنيّة في الوقت المطلوب مهما كان عصبياً، ومهما كانت الكلمة قاسية وثقيلة على القلوب. من هنا ضرورة معرفة حيثيات الزمن الذي عاش فيه كلّ نبيّ لنتتبّع كلمة الله المنطوقة في شأنها، ونفقه معناها الآنيّ والمستقبليّ.

النبي حزقيال

خلفية تاريخية

استلم الإمبراطور البابلي "نبوخذ نصر" الحكم في العام 601 ق م، بعد معركة كركميش. واجتاح جيشه المنطقة حتى وصل إلى تخوم مصر. أنهكت المعارك الجيش فعاد إلى بابل. استغل "يهواكيم"، ملك يهوذا، الوضع وحاول التمرد والاستقلال، ورفض دفع الجزية لبابل. فهيج "نبوخذ نصر" الأمم المحيطة بيهوذا ضدها. مات "يهواكيم" في تلك الفترة، وخلفه ابنه "يهواكين" الذي سار على خطى أبيه. فجدد "نبوخذ نصر" حملة على يهوذا، وتغلب عليها ودخل أورشليم. ثبت حكمه في أورشليم، وأخذ كنوز الهيكل إلى بابل، وسبي عددًا كبيرًا من قادة الشعب ونخبته وأعيانه، وكان النبي حزقيال من بينهم. أخذ "نبوخذ نصر" الملك "يهواكين" إلى بابل، ووضع محلّه أخاه "صدقيّا" ملكاً على يهوذا.

قامت سياسة البابليين على سبي القسم الأهم من الشعب المغلوب، من علماء وكتبة ومنتقنين وحرفيين... إلخ، ونقلهم إلى بابل، وترك القسم الأفقر والأكثر جهلاً في الأرض المحتلة.

حاول ملك جديد في مصر تشجيع دويلات المنطقة على الثورة ضد بابل وأرسل رسولاً إلى الملك "صدقيّا". اعترض النبي إرمياء على التحالف مع مصر، وذهب في موقفه إلى القول بأن إرادة الله تطلب الانصياع إلى بابل، ودعا "نبوخذ نصر" خادم يهوه (27: 6-7). ونصح "صدقيّا" بالخضوع لبابل كي يحيا، واعترض على أقوال الأنبياء الكذبة الذين كانوا ينادون بدعم التمرد.

لم ينصح "صدقيّا" للتمرد في البدء، سنة 594، ولكن في العام 588 جهّز ملك مصر الجديد جيشاً لمحاربة بابل. إذ ذاك زحف "نبوخذ نصر" بجيشه وحاصر أورشليم ثانية. دخل جنوده المدينة وحرّقوها ودمروا الهيكل وقادوا كثيرين إلى السبي، وتركوا الأكثر فقراً للاعتناء بالأرض. أمّا "صدقيّا" فاقتادوه إلى بابل بعدما قتلوا أبناءه أمام عينيه اللتين قُلعتا بعد ذلك.

يجدر بالذكر أنّ "صدقيّا" استرضى الربّ (يهوه)، عندما صار الخطر شديداً، بتطبيق أحد بنود الشريعة الذي يأمر بتحرير العبيد العبرانيين. ولكن هذا الإصلاح لم يكن صادقاً لأنه بمجرد أن لاح الجيش المصري في الأفق وشمّ الناس رائحة نصر المصريين عادوا فاستعبدوا العبيد المحرّرين ثانية.

الحياة تحت الاحتلال

مع أنّ حزقيال رأى إلى إعادة الوحدة لبني إسرائيل (الشماليّ والجنوبيّ) إلا أنّ حلمه هذا لم يتحقّق. فبقايا المملكة الشماليّة (عُرفوا لاحقاً بالسامريّين) وأحفاد مملكة يهوذا انقسموا دينياً بشكل عميق. يقول العهد الجديد إنّ "اليهود لا يخالطون السامريّين" (يو 4/9). ادّعى اليهود أنّهم "إسرائيل" الحقيقيّ - واستعملوا كلمة (إسرائيل) لا بمعنى سياسيّ، بل بمعناه الدينيّ - القديم: "شعب العهد".

وشاع استخدام عبارة "إيمان إسرائيل"، لأنّ النفي شكّل علامة بداية فصل جديد كامل في تاريخ إيمان إسرائيل.

بحسب نبوءة إرمياء (28-30/52) فإنّ مستقبل شعب العهد لا يكمن في البقيّة التي بقيت في أورشليم. فقد كانت فقيرة وضعيفة جداً لأنّ "نبوخذ نصر" ترك الضعفاء والجهلاء في الأرض وأخذ إلى بابل المهنيين والمثقفين وبعمله هذا قضى على إمكانية انبعاث قومي جديد لدى الشعب. وتُظهر الاكتشافات الأثرية أنّ المدن التي كانت محصنة صارت خراباً في تلك الفترة، وأنّ الأرض أهملت وتراجعت خصوبتها.

انقسمت يهوذا السابقة إلى قسمين، واحدهما يعود إلى مقاطعة السامرة البابليّة، والآخر امتصّه الأدميون، الذين خرجوا من مسقط رأسهم في جنوب شرق البحر الميت إلى حوالى منطقة حبرون. أمّا الذين استفادوا من أوضاع التسامح السياسي والاقتصاديّ فقد هاجروا بشكل متزايد إلى مصر ليبدأوا حياة جديدة. وبقي عمال قليلون فقط بين أطلال أورشليم.

التأقلم (التكيف) في البيئة البابلية

لم تكن أوضاع المنفيين في بابل سيئة جداً. فكلام حزقيال يدلّ على أنّهم أعطوا حرية اجتماعية واقتصادية. وكان وضعهم مقارنة بيهود "الغيتوات" ومعسكرات الاعتقال في القرن العشرين، أفضل بما لا يُقارن. وكانت لهم حرية الإقامة في المدن واختيار نوعية الحياة التي يريدونها.

واجهتهم مشكلة إيمانية. كان إيمانهم مرتبطاً بأرض فلسطين ومعبد أورشليم حيث مجد "يهوه". فصاروا ممزّقين لبعدهم عن مركز إيمانهم وعبادتهم وتائهيين وسط الثقافة البابلية. فالأرض زراعتها أوفر، والصناعة متقدمة، ومعابد بابل أفخم بما لا يقاس من معبد أورشليم الذي وطئته أقدام "نبوخذ نصر". دُهِش المنفيون من عظمة ورقّي الثقافة البابلية. وتساءل الكثيرون منهم أمام هذه العظمة حول أفضلية الدين البابليّ على إيمانهم التقليديّ.

كانوا يؤمنون بأنّ سيادة "يهوه" مبسّطة على أرض فلسطين، فكيف يعبدونه في أرض غريبة لها آلهتها الخاصّة؟ وتساءلوا كيف يسمعهم الربّ وهم بعيدون عن مسكنه كثيراً. يعكس المزمور 137، والآيات (7-9) بخاصّة، حيرتهم وقلقهم:

"على أنهار بابل هناك جلسنا، فبكينا أيضاً عندما تذكّرنا صهيون

على الصفصاف في وسطها علّقنا كناراتنا.

هناك طلب منا الذين سبونا أن ننشد لهم، والذين عدّبونا أن نفرّحهم.

قالوا: "أنشدوا لنا من أناشيد صهيون

كيف ننشد نشيد الرب في أرض غريبة؟

إن نسيّتك يا أورشليم فلتنسي يميني.

ليلتصق لساني بحنكي إن كنت لا أذكرك، إن كنت لا أعليّ أورشليم على ذروة فرحي" (مز 137/1-6)

العبادة من دون المعبد

ككلّ جماعة بسيطة تدخل في ثقافة أرقى منها، أخذ كثير من اليهود بتأثيرات الثقافة البابليّة وانساقوا معها متشبّهين ببقية السكّان. لكنّ آخرين كانوا أكثر التصاقاً بماضيهم وجماعتهم. يبدو أنّ إيمان إسرائيل حُفظ بنقاء وغيره عظيمين في المنفى البابليّ مقارنةً بما حصل في المنفى المصريّ.

لقد عبّد الأنبياء الكبار الطريق أمام تعبير جديد لإيمان إسرائيل بتشديدهم على أنّ "يهوه" ليس مرتبطاً بمعبد أو شليم. فارمياء النبي يشدّد، في رسالته إلى المنفيين، على أنّه حتّى في الأرض البعيدة، حيث لا يوجد معبد للربّ فإنّ الشعب يستطيع أن يتواصل مع الله بالصلاة (أر 12/29-14). وشاهد حزقيال رؤيا الربّ آتياً على عرشه إلى المنفى، وفي مقطع من سفر التثنية، كُتب في المنفى أو قبله بقليل، نقرأ:

"ويشتمكم الربّ فيما بين الأمم حتى تبقوا جماعة معدودة في الأمم الذين يسوقكم الربّ إليهم،

وتعبدون هناك آلهة صنعتها أيدي البشر من خشب وحجر، ممّا لا يرى ولا يسمع ولا يأكل ولا يشمّ.

وتطلبون هناك الربّ إلهكم فتجدونه إذا التمستموه بكلّ قلوبكم وكلّ نفوسكم" (تث 27/4-29)

تحقّق الشعب إذن من أنّه يستطيع أن يتجّه إلى الله أينما كان في المنفى، يتجّه إليه بثقة المؤمن بأنّه قريب، وأنّه هو مقدّسهم في "أرض الغربة" (مز 16/11). من دون شكّ إنّ عدداً من الصلوات الموجودة الآن في كتاب المزامير قد أُلّفت خلال النفي من قبل أشخاص مجهولين، مثل إرمياء الذي يصرخ إلى الربّ في اعترافاته "من الأعماق" (مز 1/130). وعلى الأغلب، ومن دون شكّ، أنّ مؤسسة المجامع (الكُنُس) نشأت منذ ذلك الوقت، لتجمع مجموعات صغيرة من اليهود للتعبّد والتعليم، وقد نشأت نتيجة الحاجة إلى جمع الشعب المشتّت على مدى بلاد الانتشار.

رسالة حزقيال

يلعب حزقيال دوراً مهماً في تدبير الله الخلاصي وتدرُّج انكشاف الله لشعبه، حتّى إنّه يفصل بين مرحلتين. ففي تشديده على عالميّة الله يعلن بوضوح كامل أنّ الله هو الإله الأوحد لجميع الشعوب وليس لشعب مخصّص بعينه. كما أنّ عالميّة الله هذه تحرّره من الارتباط بمكان واحد (الهيكل أو أورشليم)، ولأته إله العالم ينتقل بحريته في كلّ مكان ويوجد أينما يريد. كذلك في تشديده على وحدانيّة الملّك الله يرفض الملّكيّة كلياً ويؤسّس لمستقبل يصير فيه شعب الله واحداً يحكمه الله، وأورشليم ذاتها تصبح، كما يدلّ اسمها الذي يطلقه عليها حزقيال "يهوه شام: الربّ هنا". يعلن حزقيال زوال النظام القديم وبدء نظام جديد. وتعني كلمة "النظام" هنا الذهنيّة التي على أساسها يقرأ الشعب تاريخه ويعرف إلهه وينظر لمستقبله.

دعوة حزقيال

كان وضع المسبيين جيداً نسبياً إذ كانوا يقومون بأعمال ويتقاضون عليها أجراً. تمتّع المسبيون بحريّة ممارسة دينهم، والعيش سوياً في تجمّعات ضمن المدن البابليّة، وتطوير أوضاعهم الاقتصاديّة. أمّا النبي حزقيال فكان يملك بيتاً خاصاً به (24/3) يزوره فيه الشيوخ من حين إلى آخر.

بديهياً أن يسمع المسبيون نصيحة إرمياء وبينوا بيوتاً ويغرسوا أشجاراً وينمّوا عائلاتهم (ار 4/29-7). كانت حياتهم مرتاحة وكثيرون منهم لم يعودوا ثانية إلى فلسطين.

تسلّم حزقيال النبوّة بشكل دُرّج أكله فصار طعمه حلواً في فمه على عكس إشعياء وإرمياء اللذان هالتهما النبوّة في بادئ الأمر.

تلقى حزقيال دعوةً ليصير نبياً بعد رؤية غير مألوفة، وذلك في السنة الخامسة من السبي. قال: "انفتحت السموات ونزلت عليّ رؤية من الله" (1/1). هذا تثبّت إيمانه بأنّ "يد الربّ عليه" (3/1) وكان عمره 30 سنة (1/1).

رأى حزقيال مركبة الله السماوية تقترب إليه من الشمال، في ریح عاصفة، ترافقها سحابة عظيمة مُحاطة بهالة من الضوء، وفي البرق كان ما يشبه النحاس اللامع (4/1). ورأى، ضمن العاصفة، مركبةً تحملها أربعة كائنات غريبة، نعرف من الإصحاح (10/18-22) إنها ملائكة الشيروبيم. يصفها النبي هكذا: لها أربعة وجوه وأربعة أجنحة ولها شكل نصف إنسان ونصف حيوان، وتشابه صورة مألوفة في بابل. كلٌّ منها في تناغم تام مع الأخرى لأنَّ الروح الإلهي يسيِّرهما جميعاً. مع الشيروبيم دواليب لامعة، دولايب بجانب كلِّ منها، "دولايب ضمن دولايب" (16)، منظرها وكأَنَّها مرتبطة بالكائنات الأربعة. ويصف سيرها بطريقة غريبة، فيقول: "إلى حيث يشاء الروح كانت تسيِّر هذه الكائنات، والدواليب ترتفع معها، لأنَّ روح هذه الكائنات كانت في الدواليب" (20/1).

شاهد النبي الرَّبِّ، في هذه الرؤية الخالصة، جالساً على عرشه الساميِّ في لمعان مبهر أو "مجد".

تصوير رؤيا المركبة النارية وعظمة الله متأثّر بالتقليد العبراني والثقافة البابلية. ففي التقليد العبراني كان تابوت العهد (حيث رمز الله) يسكن في الهيكل، في قدس الأقداس، ويغطيه جناحا كرويين (نوع من الملائكة).

يجب أن نفهم الصورة لا أن نتخيلها. لا يمكن أن نتخيل شكل المركبة الإلهية التي يراها النبي، لأنَّ كلَّ تصوّر أو تخيل لله هو ناقص وفاشل، ويشوّه المعنى اللاهوتي المقصود، فمجد الله يفوق تصوّر البشر بشكل لا نهائيّ.

رؤية حزقيال للرَّبِّ في مجده العظيم آتياً على مركبة نارية إلى بابل يعني أنّ الله موجودٌ في كلِّ مكان وأنه ليس محصوراً في هيكل أورشليم. كما يعني أنّه غير مقيد ولا محصور جغرافياً محدّدة. إنّه يجوب الأرض على مركبته ويصل حتى إلى المسيبيين حيث ذروة مجد بابل، لأنّه سيعلمهم أنّه هو هو إله جميع الشعوب، وأنَّ الكلَّ في قبضته، وهو يسيِّرهما جميعاً. مسكن الله الوحيد، إن أردنا بتعابيرنا البشرية أن نعطيه مسكناً، هو تلك العربية المتحرّكة الموجودة في كلِّ مكان. لقد أكل حزقيال الدُرَج، أي كلمة الله، فغدا الله فيه وصار بدوره مسكناً لله. وهكذا صار الهيكل ومعه أورشليم أحد الأمكنة التي يزورها الله وليس المكان الوحيد الذي ينحصر به.

لننتدكّر أنّ الشعب لم يكن يعي، حتّى ذلك الوقت، أنّ إلهه إله السماء والأرض وكلِّ ما فيهما. ولننتدكّر المزمور الذي يبكي الشعب فيه إذ يتساءل: "كيف يرثم للرَّبِّ في أرض غربة". فبحسب مفهومهم لا

يستطيع الله أن يسمعهم لأنه بعيد جداً عنهم، إذ يسكن في هيكل أورشليم. نتذكّر هنا أنّ خطة الله التربويّة للبشريّة كلّفته وقتاً طويلاً كي يستطيع أن يرقّي البشر من أجل أن يتمكنوا من فهمه كما هو في الحقيقة، لا كما تزيّنه أهواءهم لهم.

ورأى النبيّ "على شبه العرش شبه كمنظر إنسان عليه من فوق".

انصعق حزقيال من مجد الله الذي رأى فيه مسافة لا نهائية تفصل الله القدّوس عن الإنسان الفاني، فسقط على وجهه ساجداً. ولما دخل فيه الروح انتصب على رجليه ليتلقّى أمر الله: عليه أن يكلم "أمة متمرّدة"، "شعبٌ عنيدٌ وقاسٍ"، يتمرّد ضدّ سيادة يهوه الربّ منذ بدء تكوّنه. دوره أن يكون "رقيباً على بيت إسرائيل" لينذرهم، باسم الله، بالكارثة الآتية عليهم. ومع أنّ الأمل بتجاوبهم مع إنذار النبيّ ضئيلٌ (33/1-9)، إلا أنّه عليهم أن يعرفوا أنّ النبيّ في وسطهم، سواء سمعوا واستجابوا أم رفضوا.

تمتدّ يد الله في الرؤيا لتعطي النبيّ درجاً ليأكله. إنّ رسالة الله التي سيحملها النبيّ إلى شعبه. يكون طعم الدرج في فم النبيّ حلوّاً (2/9-10؛ 3/1-3) ممّا يعني أنّه يقبل الرسالة ويرتضي حملها، مع معرفته بأنّه سيوجّهها إلى شعبٍ يسكن فيما بينه كما بين "العقارب" (2/6). مجد الله المهول جعل النبيّ في ذهول لسبعة أيّام.

لقد شدّد حزقيال على خطايا اسرائيل وآثامه، لا كالقاضي الذي يصدر الحكم على متّهم، بل كالذي يعبر عن رغبته الشديدة في إصلاح شعبه مستعملاً كلّ وسيلة ممكنة، علّهم يعون ما هم عليه من الإثم.

تمتدّ رواية الدعوة إلى الفصلين الثاني والثالث وتذكّرنا بدعوة إشعياء (6/9-13) التي لن تُسمع ودعوة إرمياء الخائف (17/1-18).

رسالته

نادى النبي برسالته على مرحلتين، قبل وبعد دمار أورشليم. تمتدّ المرحلة الأولى على مدى عشر سنوات، بدءاً بممارسة النبوة في السنة 597 ق.م، وحتّى سقوط أورشليم ودمار الهيكل في السنة 587 ق.م. يلوم النبي فيها شعب الله، وشعوب الأمم أيضاً. ينذر شعبه بالويل القادم، علّه يتوب فيغيّر الله ما قرّره. إنّ

نداء مرتعب من هول الكارثة التي ستحصل بسبب معاصي وتمرد الشعب وآثامه. عبثاً نادى النبي ولم يسمع أحد له. لقد وضعوا رجاءهم في مصر كي تخلصهم من بابل. خطيئة إسرائيل هي هي. إنها تضع رجاءها في الأمم الأخرى وليس في الله. إنها خطيئة البشر الذين يعتمدون، في حل مشاكلهم، على الأمور الدنيوية فيبتعدون عن الله الحي ويحيون اسماً له بينما قلوبهم وعقولهم منشغلة بما يضاد إلههم. يؤدب الله ويسمح بالضيق لكي يطهر رعيته وينقيها، كما يتنقى الذهب في البوتقة.

يمكننا تقسيم كتاب حزقيال كالتالي:

قبل سقوط أورشليم (593-587) ق.م

- 1- مشاهدة الرؤية وتلقي الدعوة (الإصحاحات 1-3).
- 2- أحاديث حول دمار يهوذا وأورشليم (الإصحاحات 4-24).
- 3- أحاديث ضد الأمم المجاورة (الإصحاحات 25-32).

بعد سقوط أورشليم (587 - 573) ق.م

- 1- أحاديث الرجاء والوعد والحياة الجديدة (الإصحاحات 33-39).
- 2- أحاديث حول أورشليم الجديدة (الإصحاحات 40-48).

تتغير لهجة النبي في القسم الثاني، وينقلب وعظه إلى رجاء بدل الإنذار. فبعدما فقد الشعب كل أمل، ينادي النبي بكلمة الله التي تُحيي وتخلق من جديد. يُحيي في شعبه الرجاء بأورشليم الجديدة التي ستكون بحسب قلب الله.

القسم الأول (قبل السقوط)

رسالة إنذار وتوبيخ

تابع "يهواكين"، من بابل، على موائد "نبوخذ نصر"، دوره رمزياً كملك، ولقّب بـ "ملك اليهودية". بينما بقي "صدقياً" وصياً على العرش. وطالما كان الملك بصفته في بابل، فقد استمر الأمل عند الذين في اليهودية بإحياء الأمة اليهودية. يبدو أنّ "يهواكين" كان رمزاً لقومية خامدة بين المسييين.

واجه حزقيال حالة لا تزال القومية فيها حيّة حتى بين المسييين. وكان هناك أنبياء كذّبة مثل حنانيا (في اليهودية) يغذون الأمل بتشتت قريب لبابل وتالياً بعودة المسييين إلى ديارهم الأم. وكلّ إشاعة في أورشليم كانت تغذي هذا الأمل، خصوصاً ما شاع عن تدخل الفرعونيين "باميتخوس" و"هرقرا". وجد إرمياء ضرورة أن يكتب للمسييين يوبّخهم لأنّهم صدّقوا الأنبياء الكذّبة، وينصحهم بأن يبنوا في بابل ليسكنوا فترة طويلة (إر 29). لقد أحرق البابليون اثنين من الأنبياء الكذّبة أحياناً بعد أن سجنوهما (إر 20/29-23).

طالما بقيت أورشليم قائمة، تماثلت رسالتا حزقيال وإرمياء، كلٌّ من موقعه: بابل وأورشليم، إنّها رسالة دمار. كانت قناعة حزقيال بأنّ سقوط أورشليم بيد "نبوخذ نصر" أمر مقرّر إلهياً، وأنّ التمرد ضدّ بابل هو خيانة لله (20/17). ورأى في هلاك المدينة الآتي مجيء يوم الربّ؛ يوم الدينونة. وحالما وقعت الواقعة أعلن أنّ النهاية قد حلّت على أرض إسرائيل.

"وقال لي الربّ: يا ابن البشر قل: هكذا قال السيّد الربّ: ستفنى أرض إسرائيل. ها هو فناؤها آتٍ على أطراف البلاد الأربعة. الفناء آتٍ عليكم يا بني إسرائيل، فأنزل غضبي بكم وأحكم عليكم بحسب طرقكم، وأعاقبكم على جميع أرجاسكم، ولا أشفق عليكم ولا أعفو، بل أعاقبكم على جميع طرقكم وأرجاسكم، فتعلمون أنّي أنا الربّ" (حز 1/7-4).

العلامات النبويّة: التنبؤ بالدمار

ترافقت نبوة حزقيال بأفعال دراماتيكية. فقد رسم، على فخّارة، مخطّط المدينة وهي تحت الحصار، وعليها الجيوش والبرج والمترسة والمجانق، ووضع حولها صاجاً من حديد علامة حصارها (3-1/4). كما اتكأ 150 يوماً على جنبه الأيسر و40 يوماً على جنبه الأيمن، ليشير إلى عدد سنين عقاب إسرائيل واليهودية (8-4/4). وبينما هو متكئ على جنبه كان يزن مقداراً قليلاً جداً من الطعام والماء ليظهر الحرمان والمجاعة التي سيحدثها الحصار (11-9/4). قصّ شعره بالموسى وقسمه إلى ثلاثة أقسام ليرسم ثلاثة أنواع من القدر المساوي الذي سيقع على شعب أورشليم (12-1/5). صرّ بقجته وحفر ليلاً في الحائط، ووضعها هناك ليكشف كيف كان أهل أورشليم يبحثون عن منفذ أو ملجأ يخفيهم وسط الليل (1-1/12-16).

أكل خبزه بارتعاش وشرب ماءه بارتعاد، إشارة إلى أنّ سگان أورشليم سيأكلون خبزهم بغمّ ويشربون ماءهم بقلق، ورمزاً إلى هول الخوف الذي سيدوقه أهل أورشليم في الحصار الآتي (20-17/12).

عندما ماتت زوجته العزيزة على قلبه لم يُقم مراسم الحداد عليها، وذلك علامة للمسيبين يقول من خلالها: إنّ سقوط أورشليم سيملئهم بالحزن والغمّ والبكاء وسيكون مفاجئاً أكثر ممّا يمكن التعبير عنه بالحداد (27-15/24).

أثارت كلمات وعلامات حزقيال اهتماماً وفضولاً، لكنّها لم توقظ التوبة أو تثير العداوة. قام بأعماله أمام الذين لهم عيون لكنّهم ما رأوا، والذين عندهم آذان للسمع ولكنّهم لم يسمعوا (2/12).

بدا حتّى أنّ الشعب كان يستمتع بخشونة أعمال حزقيال، فقد بدت لهم كشعرٍ مشوّقٍ يغنيهم مطربٌ حسن الصوت ويحسن العزف. ولذلك يسمعون كلامه ولا يعملون به (33-30/33).

كان ردّ فعل الشعب تجاه حزقيال مختلفاً تماماً عمّا كانه تجاه إرمياء، مع أنّه لم يكن رحوماً عليهم أكثر من إرمياء. لقد دعاهم "بيت تمرّد" وفصل لهم تمرّدهم منذ أن تكوّنوا حتّى تاريخه، ولكنّهم لم يحاربوه أو يتأمروا ضده.

تاريخ التمرد

بالنسبة لحزقيال يعود تاريخ التمرد إلى زمن بداية تاريخ إسرائيل. هوشع وإرميا استذكرا زمن إسرائيل في برية سيناء وصوّراه كشهر عسل، بينها وبين ربّها (هو 2/15، إر 2/2). أمّا حزقيال فقد دافع عن ما يمكن تسميته "الخطيئة الأصلية" بمعنى تاريخي - أي أنه لم يكن هناك وقت كانت فيه إسرائيل بدون خطيئة. يقرأ حزقيال عدم أمانة إسرائيل منذ زمن التعرّب في أرض مصر، ثم في زمن برية التيهان في سيناء، وصولاً إلى زمنه الحاضر:

"وقل لهم: يوم اخترت شعب إسرائيل وتعرّفت إلى نسل يعقوب في أرض مصر أقسمت لهم أنني أنا الربّ إلههم.

في ذلك اليوم أقسمت لهم أنني أخرجهم من أرض مصر إلى أرض اخترتها لهم، أرض تفيض لبناً وعسلاً، وهي فخر كل الأراضي.

فتمردوا عليّ ورفضوا أن يسمعوا لي، فما نبذوا الآلهة الكاذبة التي رأتها عيونهم، ولا تركوا أصنام مصر. وكذت أصب غضبي عليهم، وأتم غضبي فيهم، وهم في أرض مصر.

لكني ما فعلت ذلك بل حميتهم لئلا يلحق العار اسمي. فأنا أمام الأمم الذين كانوا بينهم تعرّفت إليهم لإخراجهم من أرض مصر" (20/5-6، 8-9).

اسرائيل متمردة على الله منذ البدء: في مصر، في البرية... لقد بدأت خطيئتها منذ ذلك الوقت (العبودية في مصر). هذا هو إعلان حزقيال المفاجئ. وكان الربّ ليهلكها مذ ذاك، وإن لم يفعل فلأجل اسمه القدوس. تاريخ إسرائيل فاسد منذ البدء، لأنها أجابت على اختيار الله ووعده بالتمرد عليه والعودة إلى أصنام مصر. وإذ كبح يهوه جماحه "فلأجل اسمه" حتى لا يبدو صغيراً أمام الأمم الأخرى. (لا ننسى أنّ الله يخاطب البشر بحسب لغتهم التي يمكن أن يفهموا بها).

تلعب قداسة الله دوراً مهماً عند حزقيال (لنذكر أنه كان كاهناً أيضاً، والكاهن يتحسّس القداسة بشكل خاص). قداسة الله تتطلب شعباً أميناً ومقدساً ونقياً من كلّ دنس الوثنية. قداسة الله تستوجب قداسة شعبه وإلا فالهلاك مصير هذا الشعب. هذا موضوع أساسي نجده في كلّ عظاته. فإحساسه بسيادة جلال الله، المحسوس بحيوية في رؤياه، جعله عميق الوعي بالبعد اللا نهائي للإنسان الخاطيء والمائت عن الله القدوس والبار.

يعيد حزقيال قراءة التاريخ من الخروج إلى التوطن في كنعان بصورة استعارية للعاصمتين: أورشليم والسامرة¹. ففي عظتين بليغتين (فصل 16 و 23) يصوّر تاريخ إسرائيل بـصور زناوية (تشبيهه خيانه إسرائيل لإلهها بعبادة آلهة أخرى إلى جانبه بالخيانة الزوجية صورة مألوفة في الأدب النبوي وقد استعملها كل من إرمياء وهوشع). فأصل أورشليم كنعانيّ. "أبوك أموريّ وأمك حثية" (16/3، 45) لهذه العبارة دقة تاريخية، لأنّ إسرائيل قد وُلدت في رحم الحضارة الكنعانية. لكن في هذا السياق يتكلم النبي لغة لاهوتية، أكثر مما يتكلم لغة تاريخية. يؤكّد أنّ حماقة إسرائيل تعود إلى حقيقة أنّها من زرع اتحاد شهوانيّ، إنّها بنت دعارة، لقيطة على الطرقات لهذا يبزر النبي المثلّ: "كما الأم كذلك الابنة" (آية 44). فيهوه قد تحنّن على البنت غير الشرعية التي لفظها الآخرون، وإلا لكانت لا شيء. لقد ربّاهَا وغلّاهَا وأعاد جمالها. العهد إذاً مؤسس على مبادرة من الربّ ونعمة منه. لكنّ الابنة "وثقت بجمالها" ونسيت الاعتراف لله بجمالها وحياتها. فأسرفت وراء عشاقها؛ فباعت نفسها إلى كلّ عابر سبيل حتى إنّها فتّشت عن عشاق لها ودفعت لهم. باتت أورشليم أسوأ من السامرة، وفاقت سدوم في خطيئتها. فعليها أن تتحمّل، الآن، نتيجة عهدها وعدم وفائها، أمام الأمم. سوف تأتي إلى نهايتها.

يقول النبيّ، تقضي العادة بأن يدفع الرجل للزانية أجرتها، أمّا هذه الزانية "محبّة الفساق" فكانت مختلفة، لأنّها هي من دفعت لعشاقها ليأتوا إليها (إشارة إلى فداحة خيانة إسرائيل عن قصد ودراية). لقد فاقت أورشليم السامرة 2 في السوء. وهنا يلجأ إلى الاستعارة أيضاً فيسمي مملكة إسرائيل الشمالية "أهولا" واليهودية "أهولبية" (فصل 23). ولأنّها فاقت سدوم بخطاياها فعليها أن تتحمّل سخط دينونتها وتصير عرضة للتوبيخ بين الأمم. تاريخها تاريخ عهد مكسور، يجب أن ينتهي لكي يذكرها يهوه بعهد معها "في أيام شبابها"، من أجل تأسيس "عهد أبديّ" (16/59-63). يرى حزقيال في العهد الموسويّ الشرطيّ عهداً نعمة، على غرار العهد الداووديّ الذي يدوم إلى الأبد.

"لأنّه هكذا قال السيّد الربّ: سأفعل بكِ كما فعلتِ حينما احتقرتِ قَسَمَكِ ونقضتِ العهد. أمّا أنا فأذكر عهدي معكِ في أيام صباكِ وأقيم لكِ عهداً أبدياً. عند ذلك تذكرين أنتِ طرقكِ وتخجلين حين أرضى عن أختيكِ اللتين هما أكبر منكِ، وعن اللواتي هن أصغر منكِ، فأجعلهن لكِ بنات، ولكن لا يكون عهدي معهنّ كعهدي معكِ، فتعلمين أنّي أنا الربّ. حتّى

¹ كانت أورشليم عاصمة مملكة يهوذا في الجنوب، أما السامرة فكانت عاصمة مملكة اسرائيل في الشمال.
² دمرت السامرة بسبب خطاياها قبل مائة عام، والأمر ذاته سيحصل مع أورثليم. لذلك يحاول النبي أن يجعل شعب مملكة يهوذا يستوعب الدرس لنلا يحل به ما حل بمملكة الشمال.

تتذكري وتشعري بالخزي ولا تفتحي فمك من بعد لعارك، حين أغفر لك جميع ما فعلت، يقول السيّد الرب". (16: 59-63).

معرفة الله

"آننذ سيعرفون أنّي أنا الرب"، لازمة يردّها حزقيال لأنّه قبل أن تعرف إسرائيل غفران يهوه وتدخل في علاقة "عهد أبدي"، عليها أن تكون قد عرفت دينونته في التاريخ. وكما فعل يهوه مع آبائهم في مصر كذلك سيفعل معهم؛ سيدينهم، وهم شعب متمرّد، قبل أن يبرهن عن ذاته (38-33/20). عبر هذا التأديب سيعرف إسرائيل سيادة الرب عليه.

لنذكر أنّ العهد الذي أقيم مع موسى كان عهداً شرطياً؛ "إنّ حفظتم وصاياي وسلكتم في رسومي أكون إلهاً لكم وتكونون لي شعباً". لكن عبر التاريخ، كان هذا العهد يُنقض دوماً من قبل الشعب. إنّها خطيئة البشر حتّى اليوم: عدم الأمانة لله. إقامة "أصنام" متنوّعة إلى جانبه، استبداله "بآلهة" على قياس البشر،... إلخ.

حسّ حزقيال بقداسة الله مصحوباً بتأكيد أنّ ما من شيء نجس أو غير مقدّس يمكن أن يقف في حضوره. في هذا المنظور الكهنوتي، تكون الخطايا الطقسيّة والأخلاقيّة على نفس المستوى. يصف في الفصول 8-11، في رؤية غير عاديّة، كيف حُمل من بابل إلى هيكل أورشليم ورأى التدنيس الممارس. نساء يبكين تموز (إله الخصب الكنعانيّ واسم الله عند البابليين)، ورجال يسجدون للشمس ووجوههم إلى الشرق، والغرفة السريّة (قدس الأقداس) مملوءة بصور رسومات حيوانات وآلهة، والوجهاء، الذين اضطهدوا إرمياء كثيراً - يتابعون تنفيذ مخطّطاتهم الشريرة.

ثم رأى النبي مجد يهوه - الحاضر بحسب إيمانهم في مظلة قدس الأقداس - يغادر المعبد الذي تحوّل إلى بناء لا ديني، محمولاً على مركبة عرشٍ مثل التي رآها النبيّ على ضفة نهر خابور (22-18/10). قال حزقيال إنّ وثنيّة الشعب وصلت إلى مستوى عظيم وغير مسبوق، حتّى إنّ نوح ودانيال ويعقوب، رجال الله الأبرار بامتياز، لو وُجدوا في أورشليم، ما كانوا يتشّفعون في خلاصها من الدمار (12/14-20). أمّا الأنبياء الشعبيّون الكذّبة فيخدعون الشعب قائلين: "سلام" حيث لا سلام، ويحاولون غسل الحائط المنهار" (الإصحاح 13). يصوغ حزقيال، في الإصحاح 22 المهمّ، الاتّهامات في مصطلحات خطايا

خاصة لا تتضمن فقط سوء استعمال طقسٍ مثل تدنيس السبت، بل أيضاً جرائم أخلاقية: سفك دم، زنى، ابتزاز، عدم احترام الوالدين، ظلم حقوق الأيتام والأرامل والغرباء: الأمراء والأنبياء مرتبطون بمؤامرة أفسدت شعب الله بكامله. ولا واحد بار. (30/22)

مصير الأفراد

تبرز مع حزقيال ظاهرة جديدة. فأول مرة يطرح العهد القديم مسؤولية الفرد وليس الجماعة. إنه التدرج التربوي الذي اتبعه الله ليحضّر البشرية، عبر هذه الجماعة، روحياً لمجيء المسيح المخلص. كان الأنبياء، قبل حزقيال، يوجهون كلام الله إلى الجماعة ككل. الجماعة تخطيء فكل الجماعة تُؤدّب. مع حزقيال، نسمع، بشكل واضح، للمرة الأولى في العهد القديم، التعليم القائل بأنّ خطايا الآباء لا تقرّر مصير الأبناء، وأنّ مسؤولية كل إنسان على عاتقه.

ملاحظة: كان المذنب يُعاقب قديماً مع أبناء بيته (يش 7)، ولكن ناموس تثنية الاشتراع منع معاقبة البنين بسبب خطايا الآباء (تث 24: 16). وهذه علامة تدرج تربوي أخرى أيضاً.

لم يكن السؤال جديداً بالكلية. فبحسب رواية التكوين 22/18-33، كان يهوه يتحرّك بسبب إبراهيم بما يخصّ قضية سدوم، حتى وعد بأنّه لن يدمّر المدينة إذا وُجد فيها عشر رجال أبرار. وبحسب رواية (2صمو/24) اعترف داود بذنبه الشخصي وطلب من الله أن يعاقبه هو، ولا يشمل بالعقاب أناساً أبراراً. "أنا الذي خطئت، وأنا الذي فعلت السوء، وأما أولئك المساكين كالخراف فماذا فعلوا؟ فعاقبني، عاقب بيت أبي" (آية 17).

على غرار الأنبياء الذين سبقوه، أرسل حزقيال إلى الشعب كله - إلى جماعة العهد المعروف بـ "بيت إسرائيل". لقد صرّح بأنّ الجماعة منذ بدء تاريخها وصولاً إلى زمنه، كانت ملوثة ومفسودة جداً بالشّر الذي لا يُحتمل. لقد رأى دينونة الله في وسط الأحداث السياسيّة التي ستؤدي إلى الدمار الشامل وخراب الهيكل. ولكنّه واجه معنى النكبة الوطنيّة لا على مستوى الجماعة فقط بل على مستوى الأفراد أيضاً. لأنّه وإن كانت الجماعة تستحقّ دينونة الله، إلا إنّها مؤلّفة من أفراد تصيبهم المأساة عينها أيضاً. فما هو مصير أو قدر الأفراد؟

يجب ألا نعتقد بأن إيمان إسرائيل حتى ذلك الوقت قد شدد على المسؤولية الجماعية فقط، وغض الطرف عن الأعضاء، الأفراد، الذين يؤلفون الجماعة. ما كان إيمان إسرائيل كلياني بمعنى يعتبر الفرد مستغنى عنه أمام مصالح الجماعة. بل على العكس، كانت علاقة العهد، مع أنها تربط الشعب سوياً في تضامن مجتمعي، قد أدت إلى الحس باهتمام الله بكل فرد. كان للأفراد، ضمن الجماعة، إلفة شخصية مع الله، كما كانت حقوقهم محمية شرعياً ضمن الجماعة. في النظرة الببليّة، المرء شخص حقاً فقط، عندما يقف في الجماعة - في علاقة بالله وقريبه. عندما يُعزل في الجماعة، مثل قايين في عقوبته، يتألم الشخص ويزوق العزلة الأعظم والبؤس الأعظم.

مع ذلك، في زمن آلام عظيمة، عندما كانت الجماعة تتحلّ والشعب يُنزع من أرضه، كان السؤال حول مصير الفرد يجب أن يواجهه بجدية أكثر من قبل.

لكنّ وضع الفرد كان موضوعاً مطروحاً بحدّة في زمن حزقيال وإرمياء، والتساؤل حول ألم البارّ المأخوذ بجريرة الجماعة يعبر عنه بالمثل الشعبيّ: "الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون" (إر 29/31؛ خر 18/1-4). بكلمات أخرى، كان الشعب يقول بشيء من عدم القناعة، إنهم كانوا ضحايا الحالة الموروثة من آباءهم. مؤكّدين أنهم ليسوا ملامين على الشرّ الذي جلب دينونة الله، لقد ساروا في طريق سهل وألقوا اللوم على الجيل الأسبق. لذلك واجه حزقيال تحدّي الدفاع عن عدالة الله أمام الذين يقولون "طريق يهوه ليست مستقيمة" (حز 18/25، 29؛ انظر 33/17-20).

كان الوضع شبيهاً بالمثل التالي: الأولاد الذين تألموا أو قُتلوا في الحرب العالميّة الثانيّة بسبب أخطاء وأفعال الجيل الذي سبقهم. هكذا هو التاريخ ومسيرته. كان الأولى بهؤلاء الأولاد أن يحتجوا على حظهم السيئ الذي جعلهم يولدون في ذلك الظرف المأساويّ، ولماذا لم يولدوا في أزمان أخرى؟ كان على حزقيال أن يواجه قدرية كهذه (حز 18/25-29). لقد وجد جيله في حالة قدرية، لكنّه أكّد على خطأ الجواب بحتمية "ما العمل؟ الله غير عادل". لقد حاجّهم حزقيال قائلاً إنّ أعمال الجيل الماضي لا تحتم جواب الجيل الحاضر، لأنّ الأب الصالح يمكن أن يكون له ابن سيئ، والأب السيئ قد يكون له ولد صالح. لقد شدد على أنّ مسؤولية المصير المشترك يُجاب عليها في كلّ حالة شخصية - ليس الأفراد دميّ متحرّكة بحسب الظرف الوراثي أو البيئي أو التاريخي. على كلّ فرد أن يجيب الله شخصياً، وما من فرد يجيب عن غيره.

لم يكن حزقيال يُحاجج في المحكمة لكي ينفي مبدأ "الذنب الجماعي"، الذي كان ساري المفعول في الأزمنة القديمة. فعلى سبيل المثال، قُتلت عائلة "عاكان" معه بسبب الحرم الذي قام به هو (هو 7). هذه الممارسة كانت راسخة في تابو الأديان القديمة بينما مرفوضة في زمن حزقيال. الملك "أماصيا" رفض أن يشمل بالعقوبة أولاد الذين اغتالوا والده (2ملو 6/14)، وشريعة العهد حرّمت شرعياً معاقبة الأولاد على خطايا والديهم (تث 16/24). لكن على حزقيال أن يتعاطى جواب العدالة الإلهية في حلبة التاريخ، وليس على قوس المحكمة، هناك حيث أفعال وقرارات جيلٍ ما تؤثر على الجيل اللاحق، وحيث عواقب أخطاء الماضي لا تقع على الوالدين بل على أولادهم أو أحفادهم.

لم يدافع حزقيال عن الفردية المتطرّفة، أكثر ممّا فعل إرمياء لأنّه كان واعياً، بعمق، أهمية وواقعية تضامن الجماعة الإسرائيليّة، ووحدانية ماضي الشعب، وحاضره ومستقبله، في العهد. كيف حاول الجواب على سؤال الشعب إذن؟ لقد حوّل السؤال حول عدالة الله إلى السائلين أنفسهم، مذكّراً إيّاهم بأنّهم لم يكونوا بلا عيب كما ظنّوا أنفسهم. فهم أيضاً انغمسوا في خطايا إسرائيل، وكان عليهم أن يقبلوا المسؤولية الكاملة. وبدلاً من افتراض شرح مشكلة الألم، شدّد على أنّ الألم يقمّم الفرصة للتوبة والإيمان (انظر لو 13/5-1). فبحسب حزقيال، الله نفسه متحيّر كيف أنّ الخطر المباشر العظيم لم يوقظ إسرائيل إلى التوبة:

"انبذوا جميع معاصيكم واتخذوا قلباً جديداً وروحاً جديدة، فلماذا تريدون الموت يا شعب إسرائيل؟ فأنا لا أسّر بموت من يموت، يقول السيّد الرّب، فارجعوا إليّ واحيوا" (حز 18/31-32).

قد لا يكون جواب حزقيال مقنعاً جداً. لأنّه من ناحية، لا يتألم، على الدوام، كلّ الناس الأردياء، ولا ينعم بالرخاء، دائماً، كلّ الناس الصالحين. لكنّه يحثّ على سماع نداء الله من قلب الأزيمة، نداء الله إلى التوبة وإلى طرح أنفسهم على كتف رحمته. لكن رسالته لامست طرف قلوبهم فقط. وسنرى أنّ مشكلة الألم سوف تُثار بعمق أكثر فيما بعد، من أجل الوصول إلى فهم أدقّ لطرق الله في التاريخ.

القسم الثاني (بعد السقوط)

رسالة رجاء وتقوية

الوعد ببداية جديدة (33-39)

ذهب نداء حزقيال أدراج الرياح، لأنَّ الشعب كان مستعبدًا لوفائه المرَّيف لدرجة منعتة من التجاوب مع نداء التوبة، إلى أن حدثت الكارثة وأتى يوم الدينونة أخيراً. لم يأخذ الشعب بنبؤات حزقيال وإنذاراته طالما كانت أورشليم قائمة وموجودة. طالما بقيت أورشليم واقفة فإنَّ المنفيين رفضوا الإيمان بأنَّ الأمة سوف تسقط. لقد أقنعوا أنفسهم بأنَّ حزقيال كان يتكلم عن دمار وويل سيتحققان في مستقبلٍ بعيد جداً وليس في زمنهم.

"يا ابن البشر، ما هذا المثل السائر بينكم على أرض إسرائيل؟ تقولون: مرّت الأيام وما تحققت الرؤيا.

لذلك قلّ لهم ما تكلم به السيّد الربّ: لا يتأخر بعد من كلامي شيء، وما أتكلّم به يتمّ، هكذا يقول السيّد الربّ." (حز 27،22/12).

لكنّ النبي بدّل لهجته بعد السقوط وبدأ يتكلم على الوعد ببداية جديدة. الله لا يُظهر ألوهته عن طريق الدمار فقط، بل عن طريق بداية وخلق جديدين.

في الإصحاح 20 يأتي شيوخ الشعب لكي يستفسروا من حزقيال عمّا سيفعله الله. فيجيبهم النبي بأن ليس لهم أن يستجوبوا الله... لن يعيد الله ما قد صنعه قبلاً في الخروج مع آبائهم ... هو حرّ في ما يفعله؛ سيخرجهم هذه المرّة من بابل ولكنهم لن يصلوا إلى أرض الميعاد بل سيهلكهم في البرية ويدينهم وينقيهم. "وأخرجكم من بين الشعوب وأجمعكم من البلدان البعيدة التي بعثتكم فيها، وأجيء بكم إلى البرية بعيداً عن الشعوب وأحاكمكم هناك وجهاً لوجه... فأفرز المتمردين والعاصين عليّ وأخرجهم من أرض غربتهم، لكنهم لا يدخلون أرض إسرائيل، فتعلمون أنّي أنا الربّ" (20 / 34-38). ومن يبقى منهم بعد ذلك يعيده ويسمّي البقية الباقية كل بيت إسرائيل. يصير بيت إسرائيل تعبيراً لاهوتياً يُقصد به الذين يجتمعون حول الربّ ويكون الربّ في

وسطهم. هؤلاء من يشكّلون جماعة إسرائيل الحقيقيّ. "وتعلمون إنّي أنا هو الربّ حين أعاملكم بما يليق باسمي، لا بحسب طرقكم الشريرة وأعمالكم الفاسدة يا شعب إسرائيل، يقول السيّد الربّ" (44/20).

قيامه إسرائيل

أذاع حزقيال يوماً أنّ أورشليم تحت الحصار (14-1/24)، في السنة 586 ق.م، أتت أخبار بأنّ المدينة قد سقطت (21/33). مذ ذاك صارت لهجة حزقيال بعيدة تماماً عن الكلمات القاسية للنهاية التي كان يقول بها. إنهم في حالة جديدة. فعندما صار الشعب في اليأس الأقصى (11-1/33)، تحوّلت رسالة النبي إلى رسالة تأمين ورجاء. بشر حزقيال بقدرة الله المضادة لثقة البشر بذاتهم، سواء كانت يأساً عميقاً أم تفاؤلاً شديداً. ضغط حزقيال الفرامل المعاكس، وأخذ النداء بوجود معرفة "أني أنا الربّ" معنىً جديداً. بدأ يتكلم عن أنّ يهوه يُظهر ذاته إلهاً لشعبه، ليس بإدانتهم فقط بل بإنشاء بداية جديدة لهم.

تُصوّر الرؤيا الشهيرة لوادي العظام في الفصل 37، هذه البداية الجديدة بشكل عجائبي أخذ. يسأل حزقيال الموجود في وادي ظلال الموت: "أيمكن لهذه العظام أن تحيا؟" فيأمره الربّ بأن يتنبأ عليها. فتلبس، فجأة، جلدًا وأعصاباً وتصبح كائنات حيّة وتحيا بالروح الإلهي.

في التفسير الذي يلي يقول أنّ العظام ترمز إلى إسرائيل البائس. فإسرائيل كجماعة كان مائتاً في حالة تاريخية عَدَمِيّة. وصعد الصراخ "عظامنا جفّت وأملنا خاب". مأساة إسرائيل الشديدة حققت لله فرصة، لأنّه وعد بأن يقيم إسرائيل من القبر (أي النفي) ويعيدها إلى أرضها وينفخ فيها روحه القدوس ليمنحها حياة جديدة. سيجعل الشعب شعباً واحداً، ويضمّ المملكة الشماليّة مع يهوذا، ويعين "أميراً" واحداً يحكمها. ومن ثمّ تتحقّق صيغة العهد القديم "سأكون إلهاً ويكونون لي شعباً".

الراعي الصالح

تصوّر إعادة الإحياء هذه بصورة الراعي وقطيعه. إنّها صورة لها مكانتها المهمّة في العهدين القديم والجديد (مز 23، 3/100، أش 11/40) و (لو 3/15-7، يو 1/10-18). إنّ يهوه الراعي الصالح، وعلى النقيض من الرعاة المزيّفين الذين يُطعمون أنفسهم بدلاً من إطعام خرافهم، يبحث عن الخراف الضائعة، ويتعب ويكدّ لكي يستعيدها إلى مراعيها الأصليّة (الفصل 34). إنّهُ يأخذ المبادرة في جمع القطيع:

"وقال السيّد الربّ: "سأسألُ عن غنمي وأتفقّدها كما يتفقّد الراعي قطيعه يوم يكون في وسط غنمه المنتشرة، وأنقذها من جميع المواضع التي تشتتت فيها يوم الغيم والضباب.

وأخرجها من بين الشعوب وأجمعها من البلدان وأجيءُ بها إلى أرضها، وأرعها على جبال إسرائيل وفي الأودية وفي جميع مساكن أرض إسرائيل" (خر 11/34-13)

بعد أن يعيد شعبه إلى أرضهم سوف يزودهم براحٍ صالح، قائدٍ داووديّ:

"وأقيمُ عليها راعياً واحداً ليرعها كعبي داود، فهو يرعها ويكون لها راعياً صالحاً

وأنا الربّ أكون لغنمي إلهاً، ويكون الراعي الذي كعبي داود لها رئيساً. أنا الربّ تكلمت" (حز 23/34-24)، (انظر 24/37-25).

لنلاحظ أنّ النبيّ لا يذكر مجيء "ملك" داووديّ، بل أمير، لأنّ الله سيكون من الآن فصاعداً هو الملك، والذي سيأتي سيكون داوود جديد وليس ابن داوود فقط (34/23-25). إنّهُ تطوّر باتجاه العهد الجديد، فلم تعد الملكيّة تكفي. يجب أن يتعلّم الشعب من مأساته التاريخيّة أنّ الملكيّة انحرف عن عبادة الله، لأنّ الملك يأخذ دور الله في رعاية شعبه وحمانيته. ولطالما ذكّروهم الأنبياء بهذا ولم يسمعوا. يبدو أنّ البشر لا يتعلّمون إلا من تاريخهم الشخصيّ.

شدّد حزقيال على أنّ الربّ يجب أن يبدأ العمل، لا بسبب صلاح إسرائيل بل لأنّ بقيّة الأمم سخرت من مأساة إسرائيل، التي دلّت على أنّ إلهها ضعيف أمام إله الأمم... بحسب عقلية الشعوب الشرقيّة القديمة، (ولا نزال نجد لها أصداء في تفكيرنا الحالي)، فإنّ قوّة شعب ما برهان على قوّة إلهه. هذا التفسير الخاطيء لهزيمة إسرائيل يسخر من شرف ومجد واسم الله. لذلك سوف يُبرئ يهوه قداسته، وسترى الأمم الآن أنّ الربّ هو الله، وذلك عندما يستعيدُ الشعبُ البائسَ الفاقدَ المساعدة.

وكما في حالة إرمياء، شدّد حزقيال على أنّ يهوه سوف يصنع تغييراً جذرياً في الطبيعة البشريّة إذا كان الشعب شعب العهد حقاً. "قلبُ" إسرائيل يجب أن يتحوّل: تغيير داخليّ في إسرائيل يجب أن يؤثّر ويفعل، وهكذا نمط الحياة سيكون ممكناً:

"وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل في أحشائكم روحاً جديداً وأنزع لحمكم قلب الحجر وأعطيكم قلباً من لحم،

وأجعل روحي في أحشائكم وأجعلكم تسلكون في فرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها،

وتسكنون في الأرض التي أعطيتها لأبائكم، وتكونون لي شعباً وأكون لكم إلهاً" (حز 26/36-28)،
(انظر 19/11-20).

إذاً على إسرائيل أن يطيع صوت الله، وستصير العلاقة بين الله والشعب إلى "عهد أبديّ" (26/37). هكذا بشّر حزقيال بفعل نعمة الله القدّوس في استعادة الشعب المقدّس إلى أرض مقدّسة. في زمن العهد الجديد سيكون الله في وسطهم، ممتلكاً الأرض وضابطاً إيّاها. "أعاهد غنمي عهد سلام وأرؤ الوحش الضاري عن الأرض، فتسكن في البرية آمنة وتنام في الغاب. وأجعلها هي والأرض المحيطة بجبلي بركة، وأنزل المطر في أوانه فيكون به الخير... فيعلم الجميع أنّي أنا الربّ إلههم، معهم أكون. وإنّ بيت إسرائيل هم شعبي، يقول السيّد الربّ. وأنتم يا غنمي، يا غنم مرعائي، بشر أنتم وأنا إلهكم، يقول السيّد الربّ" (34/25-31). يبرز أحد معالم هذه الاستعادة في رؤية حزقيال، في تصوير يهوه بالكاهن الذي سينصب مظلّته في وسط شعبه:

"وأعاهدهم عهد سلام أبديّ يكون معهم. وأثبتهم وأكثرهم وأجعل هيكلي في وسطهم إلى الأبد،

ويكون مسكني معهم وأكون إلههم ويكونون لي شعباً" (حز 26/37-27).

التشابهات بين حزقيال 36 ونبوءة إرمياء عن "العهد الجديد" قريبتان جداً، إلى درجة أنّ بعض الباحثين يظنّون أنّ حزقيال قد رآها أو سمعها من إرمياء شفهيّاً.

أورشليم الجديدة (40-48)

سينتصب الهيكل في مركز كل شيء. ويشرح النبي معنى هذه الصورة في الفصول التالية من الكتاب (40-48). يتكلم، بتفاصيل، عن هيكل جديد في أورشليم جديدة.

يرسم النبي صورة الهيكل الجديد الذي هو الهيكل المثالي الذي من السماء الذي يعود مجد الله إليه. "ودخل مجد الرب إلى الهيكل من الباب الشرقي، فحملني الروح ودخل بي إلى الدار الداخلية، فإذا بمجد الرب ملأ الهيكل" (43 / 4-5). عندما يطرح الشعب آثامه ويخجل مما صنعه يُعلمهم النبي بالهيكل ومقاييسه تحديداً، ويصبحون مؤهلين لشريعة الهيكل الجديدة التي هي شريعة القداسة. "وأنت يا بن البشر، فأخبر بيت إسرائيل بصفات الهيكل وليدخلوا من آثامهم. فإن دخلوا من جميع ما صنعوا، فأعلمهم بصورة الهيكل وهيئته ومخارجه ومدخله وجميع أشكاله ورسومه وأحكامه وقواعده، واكتب هذا كله أمام عيونهم ليروا صورته كلها وجميع رسومه ويعملوا بها. هذه شريعة الهيكل الذي على رأس الجبل: أن تكون جميع حدوده على محيطه مقدسة كل التقديس. هذه هي شريعة الهيكل" (34 / 10-12).

في الرؤيا التي رآها في بدء مهمته على نهر خابور، شاهد مجد يهوه عائداً إلى مظلمته في المقدس. يعتبر النبي أنّ إعادة تأهيل العبادة سوف تُنتج تغييراً على الأرض ذاتها، لأنّه من جبل الهيكل ينبع النهر المعطي الحياة، الذي مصدره هي المياه - العذبة العميقة تحت الأرض. نهر الحياة هذا سوف يسيل إلى الشرق إلى برية الأردن ويصبّ في البحر الميت ليحوّل مياهه المالحة إلى بحر مياه عذبة، وعلى ضفافه سوف تنمو أشجار تثمر ثمرًا طازجاً كلّ شهر، وفي المنطقة المدعوة عين جدي سوف يصطاد الصيادون السمك، لأنّ البحر الميت سيصير بحيرة عذبة، وكلّ ما يبلغ إليه سيحيا (1/47-12).

حملت رؤيا حزقيال لأورشليم الجديدة تأثيراً بالغاً على تصاوير نهاية الزمن اللاحقة، مثل رؤية "المدينة المقدسة أورشليم النازلة من السماء من الله" الموصوفة في الكتاب الأخير من العهد الجديد (رؤ 12).

في أورشليم الجديدة، تكون العلاقات بين "الكنيسة والدولة" منظّمة بعناية. فالكهنة من خط صادق يعاونهم اللاويون ولهم الولاية على كلّ الأمور الدينيّة. أمّا مسؤوليّة القائد المدنيّ، الأمير، فهي أن يدعم الجماعة الدينيّة ويضمن تأمين الذبائح وتطبيق الناموس والنظام (7/45-13/46). وسوف يُعاد توزيع الأرض بين الأسباط الاثني عشر، وسيجدون وحدتهم في خدمة قدس الأقداس المركزيّ في أورشليم التي

ستحمل اسماً جديداً، "يهوه هناك" (35/48). لهذا فإنّ إسرائيل سوف تصبح جماعة عابدة، على نموذج الكونفدرالية القبليّة القديمة في زمن القضاة. سيظهر في ما بعد كم كان تأثير وجهة نظر حزقيال الكهنوتيّة عميقاً على اليهوديّة الناشئة من المنفى.